عدد خاص

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية

المجلد التاسع - العدد الرابع - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

٤

القرن الخامس عشر الهجري

الأبحاث والدراسات

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المكتبات في العالمين العربي والإسلامي في العصر الوسيط

بقلم

محمد رستم ديوان(*)

ترجمة

يوسف داود عبدالقادر

بغداد ـ الجمهورية العراقية

لقد وجه الاسلام جل عنايته واهتمامه بطلب العلم وجعل القرآن الكريم الاشخاص غير المتعلمين في عداد الاموات في حين جعل المتعلمين في مصاف الاحياء وقد اعترف الرسول الاعظم (ص) بان حبر العلماء يرتقى الى مصاف دم الشهداء[1] وقال ايضا ان الطريق الموصل الى معاهد العلم هو الطريق الموصل الى السموات[2] ، وان الله عزوجل حينما يريد ان يكرم شخصا يمنحه نور العلم والمعرفة ، معرفة الدين والاحاطة باصوله وفروعه[3] .

ان هذه الاقوال وما يماثلها من اقوال وتعاليم اخرى قد تركت انطباعا عميقا في اذهان جمهرة المسلمين ففي فترة وجيزة من التاريخ انجب الاسلام مشاهير العلماء امثال (ابن شهاب الزهري) و (محمد بن جرير الطبري) وجمهرة اخرى من جهابذة العلم والمعرفة .

كان العالم الكبير (الزهري) في العهود الاولى من فترة الحكم الاموي ، قد انصرف الى دراسة العلم ووضع المؤلفات الدينية ، وقد دخلت عليه زوجته ذات مرة الى غرفته وقالت مخاطبة اياه « والله ان هذه الكتب اقبح في نظري من ضرة تعيش معي في الدار »[4] .

اما المؤرخ الكبير والمفسر الشهير محمد بن جرير الطبري فقد قال عنه (نيكلسون) « لقد امضى قرابة اربعين سنة وهو يكتب اربعين صفحة في اليوم الواحد » وحينما بدأ بتدوين تاريخه الشهير استهله بتدوين تاريخ بدء الخليقة حتى يومه انذاك كان كتابه من الفخامة بحيث ان تلامذته رفضوا قراءته واضطر آنذاك الى اختصاره وهو يعرف الان باسم ـ تاريخ الطبري ـ او تاريخ الرسل والملوك[5] وقيل بان هذا العالم الموسوعي كان يكتب بقلم القصب الذي كان يقطه بين حين واخر وكان ما يتبقى من شضايا القصب يجمعه في زاوية من زوايا مكتبته الكبيرة ، وقد اوصى قبل وفاته تلامذته بان يجمعوا اكداس هذه الشظايا ويستعملوها كوقود لاغلاء الماء المستعمل في غسل جثمانه بعد وفاته[6] ان حب العلم والمعرفة لدى اوائل المسلمين قد استوجب بالضرورة تأسيس المكتبات حيث تم تأسيسها في القرن الثاني في جميع انحاء الامبراطورية الاسلامية ومن اوائل المسلمين الذين قاموا بتأسيس اولى المكتبات وقام بترتيبها وجمع المصادر المتيسرة لها لترجمتها الى العربية ، كان خالد بن يزيد (٧٠٤)م[7] كما انه كان اول من درس علم الكيمياء في الاسلام حيث انصرف الى دراستها على ايدي الرهبان الاغريق ، وقد زار ابن النديم (٩٨٧)م شخصيا هذه المكتبة[8] فوجد فيها العديد من الكتب القيمة في الطب والجراحة والفلك والكيمياء .

وكانت المكتبة الملكية في عهد خلافة عمر بن عبدالعزيز جزأ من مكتبة خالد بن يزيد بن معاوية ـ ٧٠٤م ـ . واستمر انشاء المكتبات وتطويرها منذ ذلك الحين حيث كانت تضم دواوين شعراء ما قبل الاسلام التي تصف انتصاراتهم وانسابهم وقد انصرف العلماء الى وضع الكتب الجديدة في التفسير والحديث والفقه والتاريخ والسير وعلم الكلام .

وفي عام ٨٧ للهجرة قام عبدالله بن مالك بترجمة السجل الرسمي في مصر الى العربية بناء على

(*) محمد رستم ديوان هو استاذ في جامعة ـ دكا ـ بنغلاديش ويشغل منصب رئيس قسم اللغتين الفارسية والاردية في الجامعة المذكورة وقد كتب هذا المقال خصيصاً لمجلة الاسلام والعصور الحديثة .

طلب الوليد الاول ٧٠٥ ــ ١٥م ، وفي عهد هشام بن عبدالملك ــ ١٠٥ ــ ١٢٥ للهجرة ــ ٧٢٣ ــ ٧٤٢ م كانت السجلات السريانية الرسمية قد ترجمت الى العربية[٩] ، وقد امر ايضا رئيس كتابه (سالم) بترجمة تاريخ ملوك الفرس في عا م١١٣هـ ــ ٧٣١م وكانت تتضمن هذه الكتب المترجمة التصاوير الشخصية لاولاد الملوك الفرس[١٠] .

وفي خلال العصر العباسي ادخل المسلمون تحسينات كبيرة في حقل النشاط الفكري فتم تشييد المكتبات الكبيرة وادخلوا علوما جديدة في حقل العلم والانسانيات كما ادخلوا في معارفهم المكتشفات المهمة في حقل الجغرافيا والكيمياء والطب ... الخ وكان الخليفة المأمون (٧٥٤ ــ ٧٥)م[١١] من كبار رعاة العلم والعلماء فامر بترجمة المؤلفات الادبية والعلمية من اللغات الاجنبية الى العربية وفي عهد خلافته تم جمع الحديث في كتب عديدة كما تم في عهده استنساخ كتب الفقه الاسلامي وترجم في عهده تاريخ (الساسيكى) الايراني القديم وهو من الكتب المقدسة عند الفرس وانصرف في عهده ايضا جمهرة من العلماء المسلمين والمسيحيين الى ترجمة الكتب الفارسية الى العربية وبذلك اضيف المزيد من المعارف في حقل الدراسات والبحوث[١٢] .

وفي عهد المأمون ايضا تمت ترجمة كتب (ماني) السبعة الى العربية وذلك في عام (٢١٥) هجرية[١٣]، واشار ابن النديم في فهرسته الى العديد من اسماء المترجمين الشهيرين[١٤] ، هذا وبالاضافة الى ذلك فان الرسائل والكتب والمراسيم بالملوك الفرس امثال (انو شروان) و (هرمز) و (اردشير) وغيرهم كانت قد ترجمت وترجمت الى العربية كذلك ، وعلى الرغم من المسلمين في تلك العهود لم يكونوا مولعين في كتب القصص ومع هذا فانهم لم يتركوا هذا الحقل من الادب دون تناوله بالبحث والدراسة[١٥] .

وكان الاساتذة الهندوس يتدفقون من الهند افواجا الى بلاط الخليفة العباسي في بغداد حيث كانوا موضع ترحيب الخلفاء الذين كلفوهم بترجمة بضعة كتب من السنسكريتية الى العربية وقد تم تعيين بعض الاساتذة الهندوس في بعض المناصب المهمة في بلاط الخليفة .

وفي عام ٧٧٣م ترجم كتاب في علم الفلك من وضع العالم الفلكي (سيذانتا) وقام بترجمته الى العربية (الفرضي) بالاضافة الى تاليف الف كتاب يتسم بالاصالة قد اضيفت الى حقل المعرفة آنذاك.

وفي عهد الخليفة هارون الرشيد (٧٨٦)م طرأ تحسن كبير في حقل المكتبات واسس في بغداد مكتبته الشهيرة (بيت الحكمة) وهي مكتبة اكاديمية كما اسس مكتبا للترجمة وجمع مشاهير الاساتذة امثال الاصمعي النحوي والشافعي وعيسى بن يونس (اونوس) الصوفي وسفيان الثوري وابراهيم الموصلي الموسيقى وجبرائيل بن بخيشوع الطبيب[١٧] كما جمع هذا الخليفة العديد من المخطوطات الاغريقية والاداب الشرقية وامر بترجمتها الى العربية[١٨] .

وكان رئيس وزراءه يحيى بن خالد البرمكي قد انتدب السفراء الى الهند لدعوته الاساتذة المرموقين ومشاهير الاطباء والفلاسفة واستخدمهم للعمل في بلاط هارون الرشيد وبذلك اصبحت مدينة بغداد منارا للعلم والمعرفة ، ومن الجدير بالذكر ان الخليفة لم يكن ليميز في تعيين المترجمين من مختلف اصحاب العقائد وصنوف اللون والجنس والدين . وكمثال على ذلك فان السلطة الحاكمة قد عينت (ابان الشعوبي) موظفا في مكتبته رغم معاداته للعرب والعروبة[١٩] وفي خلال ذلك العصر فان المؤرخ العربي (عمر الواقدي) (٧٣٦ ــ ٨١١)م كان يملك في مكتبته ما حمولته من الكتب ما تعادل حمولة (١٢٠) جملا[٢٠] .

اما الخليفة المأمون (٨١٣ ــ ٨٤٧)م الذي يعرف عهده بالعصر الذهبي فقد قام بتوسيع (بيت الحكمة) التي اسسها والده الرشيد وكان بلاطه مزدحما بمشاهير الاساتذة والشعراء والاطباء والفلاسفة الذين قدموا من جميع ارجاء العالم ومن مختلف المعتقدات والجنسيات وقد انفق عليهم دونما تمييز في الجنس الرعاية الواسعة كما انفق الاموال الطائلة على المؤرخين والفلاسفة والنحويين وجامعي الحديث الذين تجمعوا في عاصمة ملكه

لقد قام المأمون بأكتناز سجلات ايام الجاهلية عند العرب واغنى بيت الحكمة فيها بالاضافة الى جمعه شعر العرب القدامى والرسائل والوثائق الارشيفية .

ومن ضمن رواد الترجمة في هذا المعهد (بيت الحكمة) ، ابو يحيى بن البطريق (٧٠٦ ــ ٧٩٦)م وهو من علماء الاغريق قد عاصرت هذه الفترة نهضة هامة جدا في تاريخ الاسلام وتميزت كذلك بوفرة التراجم والمترجمين الى اللغة العربية .

وعين المأمون حنين بن اسحق (٨٠٩ ــ ٨٧٧)م ضمن افراد حاشيته وكان حنين هذا مترجما فذا ، وكان المأمون يزن كتبه المترجمة من الفارسية والسنسكريتية والقبطية واليونانية ، بالذهب[٢١] .

وثمة مترجم كبير في هذا المعهد (بيت الحكمة) هو يوحنا ، لقد كان فيلسوفا كبيرا وقا م بترجمة (١٢١) كتابا عن جالينوس ـ (٢٠٠ ـ ١٠٠)ق.م

وكان الفيلسوف الكبير الكندي (٨١٣ـ٨٧٤) عضوا في هذا المعهد الشهير[٢٢] وبالاضافة الى اعماله في حقل الترجمة كانت ثمة دوافع قوية لاجراء الدراسات والبحوث والمساهمات الاصيلة لتأسيس دائرة تحت اشراف اساتذة اكفاء . وشجع التأليف عن طريق بذل المنح السخية وكان هناك عدد لا حصر له من كتب الرياضيات والهندسة والفلسفة والفلك وعلم الارصاد الجوية وعلم البصريات والميكانيك والطب ... الخ كل هذه العلوم قد جمعت ونشرت لاطلاع جمهرة القراء عليها (٢٣) وكان (البرازي) المتوفى في عام (٩٢٥)م من علماء الفيزياء حيث كتب ما يربو على مئتى كتاب لبيت الحكمة (٢٤) كما ان (ابن ابي الحارث) وهو من مشاهير مجلدي الكتب عد كمجلد للكتب في هذه المكتبة .

ان ضخامة مكتبة المأمون والعدد الهائل من الكتب التي احتوتها يمكن تصورها بسهولة في حقيقة كون مدينة بغداد ، رغم تعرضها للسلب والنهب مرات عديدة وسرقت منها الكتب الادبية ولكنها رغم كل ذلك فان عدد الكتب التي بقيت سالمة حتى القرن السابع الهجري كان هائلا جدا[٢٥]، ومن حسن الحظ فان ابن ابي عصيبة قد حصل على هذه الكتب وذكرها في ترجمة الحسين بن اسحق .

ومنذ عصر المأمون فان ممارسة جمع وحفظ الكتب قد اصبحت سمة عامة في ارجاء بغداد طولا وعرضا وان معظم الوزراء وافراد الحاشية الملكية وكبار رجال الجيش كانوا يملكون مكتباتهم الخاصة بهم وصرفوا المزيد من المال من اجل جمعها وخزنها . وكان الفتح بن خاقان وزير المتوكل (٨٤٧ ـ ٦١)م قد بنى مكتبة ضخمة وعين يحيى بن المنجم (المتوفى في عام ٨٨٨م مشرفا عليها ، وكانت تلك المكتبة تعتبر فريدة من نوعها في تلك الايام .

وكان محمد بن عبدالملك الزيات وزير الواثق بالله[٢٦] يصرف عشرة الاف ربية(*) في الشهر الواحد لترجمة واستنساخ الكتب .

وكان الوافدي (المتوفى في عام ٨٢٢م) يملك في مكتبته ٦٠٠ رفا صفت عليها انواع الكتب وقبل بضع سنوات من وفاته باع جزء من هذه الكتب بسعر الفي قطعة من الذهب[٢٧] .

وتعتبر (دار العلم) في الموصل من المكتبات التي اسسها ابو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي (٨٥٤ـ٩٣٤م)[٢٨] وكان متحمسا للمعرفة وحب العلم وكان ثمة حشد كبير من الشعراء والاساتذة في بلاطه . وكان صفي الدولة مولعا جدا بالنشاطات ميالا لجمع الكتب لمكتبته وكذلك كان شأن اخيه ، وكلا الاخوين من الشعراء المجيدين في ذلك العصر وعين احد الاساتذة قيما على مكتبته[٣٠] .

وكان عضد الدولة السلطان البويهي شاعرا كبيرا واستاذا في الادب وقد اسس مكتبة ضخمة وامر بجمع الكتب في مختلف المواضيع مبتدا من العهود الاسلامية حتى عصره وكان العلامة(البشاري) قد وصف هذه المكتبة بالقول على انها (فردوس على الارض) انها مكتبة رائعة ضمن قصره جمعها في بناية ضخمة ملاءت بعدد كبير من الكتب ، وكان حجم الرفوف التي احتوتها هذه المكتبة بعرض ثلاث ياردات وبطول قامة الانسان وكان خشب هذه الرفوف من اجود انواع الاخشاب المزينة والمزخرفة بالذهب . وثمة غرف منفصلة وفهارس خصصت لكل موضوع وفيها قيم يشرف عليها وامين للصندوق وبضعة موظفين آخرين عينوا لادارة شؤون هذه المكتبة ولم يكن يسمح بالدخول اليها من المدخل الرئيسي[٣١] .

وكانت لديه مكتبة اخرى في البصرة بقيت مفتوحة لدراسة الاساتذة وكان فيها ترتيب خاص اعد لجلوس القراء والنساخ عليها[٣٢] .

وهناك مكتبة تعرف بـ (خزانة الوقف) بقيت في البصرة وقد قام بتأسيسها علي بن ساوار الكاتب والذي كان في خدمة عضد الدولة (توفي في عام٩٨٢م) وكانت هذه المكتبة تحتوي على بعض الكتب النادرة واستمر بقاء هذه المكتبة حتى زمن الحريري (المتوفى في عام ١١٢٢م)[٣٣] .

وثمة احتمال بان شابور بن اردشير هو حاكم بويهي قد اسس في بغداد في عام ٩٢٢م مكتبة واطلق عليها اسم (دار العلم) وكانت تضم عددا كبيرا من الكتب وضعها في خدمة جمهور القراء للاستفادة منها وهي اول مكتبة عامة لدى المسلمين في العصر الوسيط .

(*) الربية عملة هندية ادخلها الانكليز عند احتلالهم شبه القارة الهندية ، والربية الواحدة تساوي (٧٥) فلسا ولا تزال هذه العملة قيد التداول في كل من الهند وباكستان وبنكلاديش (المترجم)

وفي عام ١٠٠٤م بنى الحكيم عمربله حاكم مصر ، مكتبة كبيرة يأمها الجمهور وكان الاحتفال بافتتاحها مصحوبا بالابهة والفخامة وكان الورق والحبر والمحابر وغيرها من المواد تجهز الى القراء مجانا .

وفي عام ١٠٠٩م كان العديد من خزانات بيع الكتب والدكاكين قد اوقفت لسد مصاريف هذه المكتبة(٣٤) .

ومنذ ذلك العصر فما بعد اصبح تأسيس المكتبات العامة ممارسة شائعة فقد تم تاسيس عدد لا يحصى من المكتبات المماثلة في جميع ارجاء العالم الاسلامي .

وفي خلال القرن الحادي عشر ازداد الميل الى تأسيس الجامعات في العالم الاسلامي ولم يكن ثمة مفر من الحاق مكتبة واحدة على الاقل بكل كلية او جامعة(٣٥) . وكان نظام الملك رئيس الوزراء الذي اشتهر برعايته للعلم قد جمع حوله نخبة من الاساتذة بضمنهم الفلكيين والشعراء والمؤرخين وقد قام بتأسيس المدرسة النظامية في بغداد ومكتبة ملحقة بها وقد اصدر امرا عاما في جميع ارجاء العالم الاسلامي لتأسيس مكتبة ترتبط بكل مؤسسة اكاديمية وبنتيجة هذا الامر الملكي انتشرت المكتبات في جميع اقطار العالم الاسلامي وكان كل جامع حتى وان كان صغيرا ولا توجد فيه سوى مدرسة واحدة الحقت به مكتبة(٣٦) وثمة مكتبة تعرف بـ (خزانة الكتب) في مشهد ابي حنيفة الحقت بمدرسة المشهد وقد اسسها منصور الخوارزمي في عام ١٠٦٦م ولا تزال هذه المكتبة باقية في محلها الحالي وتبعد حوالي ثلاثة اميال عن بغداد وتقع على مقربة من مسجد ابي حنيفة وتحتوي على عدد ضخم من الكتب(٣٧) .

اما خزانة مسجد الزيدي فقد اسسها الشريف الزيدي (١١٣٤ ـ ١١٧٩م) فقد استلم هذا الشريف من الخليفة (٢٠٠٠) دينار لمصاريفه الخاصة الا انه فضل ان يشتري بهذا المبلغ قطعة من الارض في شرقي بغداد اسس عليها مكتبة اخرى(٣٨) ، وهناك خزانة الرباط الخاتوني السلجوقي كانت من ضمن اوقاف الخليفة الناصر لدين الله (١١٨٠ ـ ١٢٢٥م) وقد بنيت هذه الخزانة على قبر زوجته سلجوقة خاتون في باب البصرة من بغداد ، وكانت الكتب التي تضمها هذه المكتبة هي مجموعة الكتب الخاصة من كتب الخليفة ، وقد كان جميع الوزراء العباسيين على وجه التقريب لديهم مكتباتهم الخاصة بهم(٣٩) اما الخليفة المستنصر (١٢٢٦ ـ ١٢٤٢) فقد اسس الجامعة المستنصرية ومكتبة ملحقة بها وذلك في عام ١٢٣٣م وكان هناك العديد من ممتلكات الاراضي قد اوقفت من قبل الخليفة لتغطية مصروفات هذه الجامعة والمكتبة وتقدر قيمة هذه الممتلكات بعشرة ملايين من العملة الذهبية . لقد كانت هذه الجامعة فريدة من نوعها في جميع ارجاء العالم على حد قول ابن الاثير ، وكان عدد الكتب الموجودة في المكتبة الملحقة بالجامعة يناهز الثمانين الف مجلد(٤٠) وتمتلك مدينة بغداد بمفردها (٣٦) مكتبة عامة(٤١) .

وكانت آخر مكتبة أسست في الفترة العباسية من قبل الوزير العباسي ابن العلقمي وقد بلغ عدد المجلات التي احتوتها هذه المكتبة اربعمائة الف مجلد وكان من ضمن المكتبات العامة في عهد الخلفاء العباسيين وقد دمرت جميع هذه المكتبات اثر هجوم المغول على بغداد في عام ١٢٥٨م(٤٢) .

لقد اثارت هذه المكتبات ولعا خاصا في اذهان الناس في الغرب ايضا ففي اسبانيا كان اعظم هؤلاء المولعين بتأسيس المكتبات هناك هو الحكم الثاني وقد كتب ابن خلدون (المتوفى في عام ١٤٦٠م) والمقري (المتوفى في عام ١٦٣١م) الشيء الكثير عن هذه المكتبات .

لقد كان الخليفة الاموي الشهير (الحكم) بعيد النظر استاذا من الطراز الاول وكانت رغبته في جمع الكتب كبيرة جدا حتى ان جميع واردات الدولة لم تكن لتفي بهذا الغرض وقد عين في المدن الاسبانية والسورية وفي مصر وبغداد وفارس وخراسان بضعة موظفين وتجار لجمع الكتب النادرة والباهضة الثمن الجديد منها والقديم .

وحينما انتهى ابو الفرج الاصفهاني (المتوفي في عام ٩٦٧م) من وضع كتابه الشهير المعروف (الاغاني) ،انتدب الحكم رسولا خاصا ليسجل هذا الكتاب في مكتبته في بادىء الامر قبل استنساخه وتوزيعه في انحاء القطر وهكذا تم شراء الكتاب باربعة الاف روبية وجلب للمرة الاولى الى مكتبة الحكم .

وقال ابن خلدون وابن الابار ، انه بالاضافة الى عدد الصفحات التي دونت فيها اربعمائة الف كتاب من كتبه في مختلف المواضع فأن دواوين الشعر فقط قد غطت ثمانمائة صفحة من فهارس مكتبته(٤٤) .

ولقد تأسست في عهد الحكم الثاني جامعة قرطبة الشهيرة في الجامع الرئيسي الكبير من ضمن المنشآت التعليمية في العالم وقد امها مختلف الطلاب المسيحيين المسلمين ليس من اسبانيا فقط ولكن من انحاء اخرى في اوربا وافريقيا واسيا(٤٥) وكانت مكتبة اضخم واغنى مكتبه في العالم(٤٦) .

لقد صرف الحكم الثاني بسخاء على مجموعات الكتب المستنسخة وكان وكلاؤه يفتشون عن الكتب في محلات بيعها وفي المكتبات الاخرى في كل من بغداد ودمشق و القاهرة والاسكندرية وغيرها من الاماكن وقد حصل ايضا على كتب كتبت خصيصا لمكتبته كما استنسخت الاعداد الكبيرة من الكتب لهذه المكتبة ايضا ومن ضمنها الكتب التي نبحث في علم المواقيت وكتاب اوقات الصناعات الذي الفه ابو الحسن عريب بن سيد المتوفي في عام (٩٨٠–٩٨١) والذي كتبه في قرطبة في عام ٩٦١ ثم نقح وترجم الى اللاتينية من قبل (دوزي) في عام ١٨٧٣م[٤٧] وقد تحدث الاساتذة العرب المعاصرون كثيرا عن مكتبة الحكم الثاني وعن مجموعتها الضخمة وكتبها الثمينة وطبقا لاقوال هؤلاء الاساتذة فان مكتبة الحكم الثاني تضم اعظم مجموعة حوتها مكتبة ملكية في العصر الوسيط في العالم[٤٨] وكان الحكم شغوفا بتنظيم مكتبته وتصنيفها وتزيينها بالزخارف الفنية ... الخ وقد عين لها عددا من حذاق المجلدين وبضعة غرف خصصت لاعمال الاستنساخ والزخرفة وتجليد الكتب التي كتبت بحروف من الذهب وزينت بالتصاوير الجميلة هذا وبالاضافة الى ذلك فان الحكم كان استاذا ومؤرخا وضع الشيء الكثير من الملاحظات على الصفحات البيضاء الاخيرة من الكتب واضاف الحواشي الثمينة على كل كتاب ودون اسماء مؤلفي الكتب والقابهم واسماء عوائلهم وقبائلهم وتواريخ ولادتهم ووفاتهم ولم يكن غير الحكم ممن يملكون هذا الفيض من المعلومات في التاريخ والادب وعلم الانساب ، وبلغت معلوماته هذه من الدقة بحيث ان الاساتذة المتأخرين قد اعترفوا بصحة هذه الحواشي وعلى انها تتسم بالدقة والصدق .

لقد جمع الحكم الثاني ما لا يقل عن اربعمائة كتاب في زمن لم يكن فيه الطبع والنشر معروفا كما هو الحال في ايامنا هذه[٥٠] .

ولم تحرم المراة في خلال حكم الحكم الثاني من نصيبها في العلم والمعرفة فقد مارست المراة في عهده شرف التعليم وكرست نفسها للدراسة والعلم وكان العديد من النسوة قد حصلن على شهرة مرموقة لما كتبن من مقالات ادبية ولما نظمنه من الشعر وجمال الحظ وكان بين جواريه من حصلن على نصيب واخر من الثقافة وقواعد اللغة وعلم الحساب والعلوم الاخرى . وكانت هذه الجارية مولعة بالشعر ايضا فلم يكن في قصر الحكم من يستطيع ان يجاريها في اسلوب الكلام البليغ وكانت هذه هي فاطمة ابنة العامل الرقيق في البلاط ويدعى زكريا وقد قام باستنساخ العديد من الكتب للخلفاء[٥١] .

وكان احمد بن محمد القرطبي له ابنة تدعى عائشة وهو الاسم الذي نال شهرة مرموقة بسبب كفائتها في نظم الشعر والقاءه وكانت تملك مكتبة انيقة[٥٢] ، وفي خلال حكم الحكم الثاني كان هناك[٧٠] مكتبة عامة ملحقة بالمسجد الكبير في قرطبة[٥٣] وكان الوزير ابن عباس من مدينة (المريا) في اسبانيا يملك اربعمائة الف كتاب في مكتبته[٥٤] وقيل ان خلال حكم الحكم اصبحت جميع ارجاء القطر مليئة بخزانات الكتب وكانت المخطوطات تباع في الاسواق على نطاق واسع كغيرها من البضائع .

لقد كان حاجب المنصور الذي جاء بعد حكم الحكم الثاني والذي كان يرعى الاساتذة وطلاب العلم ، كان ينفق ببذخ لجمع الكتب النادرة لمكتبته وقيل انه قد انفق خمسة الاف قطعة ذهبية من العملة لشراء كتاب واحد وهو الكتاب الموسوم بـ (الفصوص) الذي الفه سعيد البغدادي (المتوفى في عام ١٠٢١م)[٥٥] .

وفي بخارى كان نوح بن منصور ملكا عظيما قام بتأسيس مكتبة لا توازيها مكتبة اخرى في عصرنا الحاضر من كافة النواحي وقد قال ابن خلكان «ان جميع انواع الكتب الخاصة بالصناعات والفنون والعلوم كانت مخزونة في مكتبته الانيقة والغنية وبالاضافة الى ذلك فان هذه المكتبة قد ضمت من الكتب الفريدة من نوعها ولا يوجد تطير لها في اية مكتبة اخرى » .

اما ابن سينا (٩٨٠ – ١٠٣٧م) فيقول (ان كنوز الكتب الموجودة في هذه المكتبة التي ضمت مواضيع الفلسفة التي رأيتها فيها لم اجدها في مكتبة اخرى ولم يرها غيري في مكان آخر) .

ان المكتبة هذه عبارة عن بناية ضخمة تحتوي على العديد من الغرف وفي كل غرفة العديد من الرفوف التي رتبت فيها الكتب من جميع انواع المواضيع وقد رتبت بشكل منفصل ، اي ان كل موضوع قد رتب على حده[٥٦] .

لقد استدعى نوح بن منصور الاستاذ الشهير الصاحب بن عباد (المتوفى في عام ٩٣٨ – ٩٩٥م) لزيارته في بخارى ليكون وزيرا له ولكن الصاحب قد رفض هذا العرض لانه يحتاج الى اربعمائة بعير لينقل بها مقتنياته من الكتب الخاصة[٥٧] . لقد كان نوح بن منصور مولعا بالفلسفة والعلم والفنون وكان سخيا في الانفاق على الاساتذة .

اما في مصر فان الفاطميين قد اسسوا عددا كبيرا من المكتبات وكانت هذه المؤسسات في الواقع قد فاقت جميع المكتبات الاخرى التي تأسست من قبل نظرائهم في معظم انحاء العالم ، واول مكتبة تأسست في القاهرة من قبل الخليفة الفاطمي (العزيز) (٩٧٥ ـ ٩٧٦م) بالاضافة الى (٣٥) تلميذا يعيشون على اموال الاوقاف ، وتحتوي مكتبة هذه المدرسة على اربعمائة الف مجلد (وثمة رواية تقول انها ستمائة الف مجلد) ومن ضمنها ٢٤٠٠ نسخة من القرآن الكريم مزخرفة بصور جميلة من الذهب والفضة وقد وضعت في غرفة منفصلة وكانت الكتب الاخرى تشمل مواضيع الشريعة والنحو والتجويد والتاريخ والسير والفلك والكيمياء وقد وضعت في رفوف حوالي الجدران وكل مجموعة من الرفوف وضعت في غرف خاصة ويشير المقريزي (١٣٤٦ ـ ١٤٤٢م) الى هذه المكتبة قائلا بانها كانت جزا من القصر الملكي وتحتوي على اربعين مكتبة منفصلة عن بعضها وكل منها تضم ١٨٠٠٠ مجلد في مختلف العلوم والمعارف القديمة ، ويضيف المقريزي قائلا انه قد وجد فيها صنوف الاقلام والنساخين امثال ابن مقله وابن البواب واضرابهما وكانت هناك كرة الارض التي صنعها بطليموس منذ ٢٢٥٠ سنة وثمة كرة اخرى ابتيعت لعضد الدولة بقيمة خمسة عشر الف روبية وكانت موجودة في تلك المكتبة ايضا(٦٠) .

ولم تقتصر الرغبة في تاسيس المكتبات على الملوك والحكام بل ان معظم الاساتذة كانوا يشعرون بالفخر في تأسيس مكتبات خاصة بهم وعلى سبيل المثال كان ابو نصر سيهات بن المرزبان الامير الشهير في نيسابور قد صرف معظم ثروته لجمع مجموعات من الكتب وغالبا ما كان يسافر الى بغداد بحثا عن الكتب النادرة(٦١) .

ولقد اسس محمد بن حسين البغدادي مكتبة لا نظير لها من حيث احتوائها على مجموعات من الكتب النادرة الثمينة ويقول ابن النديم بانه لم ير مكتبته كهذه في مكان اخر ، وكان ابن النديم مقربا لمحمد بن حسين ونال ثقته ، ويقول بانه قد جلب لي حقيبة كبيرة مليئة بما لا حصر من دواوين الشعر والسجلات والوثائق الخاصة بالعرب القدامى التي كتبت على الجلود والاوراق من خراسان ومصر والصين كما تحتوي هذه الحقيبة ايضا على رسائل الامام علي (رض) وكذلك تلك التي كتبها كل من الامامين الحسن والحسين رضي الله عنهما وكذلك الرسائل التي كتبها الرسول الاعظم والموجهة الى مختلف رؤساء القبائل اضافة الى احاديث سفيان الثوري والاوزاعي وقد علمت من اطلاعي على هذه المكتبة بان علم النحو كان من وضع ابى الاسود(٦٢) .

ولقد اظهر المسلمون في ايران حماسا شديدا في البحث عن اقدم الكتب ، يقول ابو معشر الفلكي بانه منذ زمن طويل كانت ثمة مكتبة كبيرة اسسها المسلمون هناك وتضم المزيد من الكتب القديمة ولما خربت هذه المكتبة وجد فيها عدد كبير من الكتب المدونة بالفارسية القديمة وكان القليل من الاساتذة ممن يستطيعون قراءتها .

ويقول ابن النديم بانه في عام ٣٥٠هـ ـ ٩٦١م استخرجت الاعداد الكبيرة من الكتب من معظم خرائب هذه المكتبة ولكن لم يكن هناك من يحسن قراءة محتوياتها .

ويقول ابن العميد بانه قد تم ارسال العديد من هذه الكتب الى بغداد في عام ٣٤٠هـ/٦٥١م والتي كانت محفوظة في خزانات كتب اصفهان وكانت مدونة باللغة اليونانية ويقول ان يوحنا بن ماسويه (٧٥٠ ـ ٨٥٠م) وغيره كانوا يحسنون قراءة محتوياتها(٦٣) .

وكان في حاشيةالسلطان محمد(٩٩٦ ـ ١٠٣٠م) ما يزيد على اربعمائة استاذ من الادباء والشعراء امثال البيروني والفردورسي والدقيقي والعنصري والاسجدي وكثيرون غيرهم والسلطان محمد هذا هو الفاتح العظيم لغزنة وقد اسس خلال حكمه مكتبة كبيرة وازدهرت في عهده العلوم والفنون الى حد كبير هذا وان قيام دولة السلجوقيين وتذوقهم انتاج الاساتذة والعلماء يعكس لنا تلك الايام الذهبية في العصر العباسي ، وكان طغرل والب ارسلان وسنجر وغيرهم قد اسسوا العديد من المكتبات(٦٤) .

ولعلنا نحتاج الى جملة من الكتب لايفاء حق هذا البحث الخاص بالمساهمة المجيدة التي مارسها المسلمون القدامى في هذا الحقل من المعرفة(المكتبات) ولكن خشية من الاطالة سنختتم هذا المقال بايراد اسماء بعض المكتبات في العصر الوسيط وقد جاء في كتاب (سفر نامة) لمولانا شبلى النعماني بان قسطنطينية الترك كانت اعظم مركز للكتب العربية وكان هناك (٤٥) مكتبة في مدينة القسطنطينية وجميعها كانت في قصر (الهمايون) التي تعتبر من اقدم المكتبات ويبلغ عدد الكتب الموجودة في هذه المكتبات حوالي ٨٥ الف مجلد ورغم ان هذا العدد ليس كبيرا ومع هذا فان القسطنطينية كانت متميزة بسبب احتوائها على الكتب النادرة وان بعض اسماء هذه المكتبات هي كما يلي :

كتب خانه جامع بايزيد ، كتب‌خانه جام يول، كتب خانه حميدية قديم ، كتب خانه عاشر افندي، كتب خانه اسعد افندي ، كتب خانه جام محمد فاتح ، كتب خانه حميدية جديد ، كتب خانه علي باشا ، كتب خانه لاله باي ، كتب خانه اخيل باشا ، كتب خانه محمد باشا ، كتب خانه قليجي علي باشا، كتب خانة ولي‌الدين افندي كتب خانه سليميه ، كتب خانه فيضى الله افندي . كتب خانه سلطان محمد قاضي زاده ، كتب خانه عاطف افندي ، كتب خانه شهناز داماد ابراهيم باشا ، كتب خانه خسرو باشا ، كتب خانه مهربهان ، كتب خانه محمد افندي ، كتب خانه مصطفى باشا ، كتب خانه توفيق افندي ، كتب خانه سليمانية ، كتب خانه محمد افندي مراد ، كتب خانه راغب باشا(٦٥) .

ويضيف مولانا قائلا ان هذه المكتبات ، كما تدل عليها اسماؤها قد اسسها الباشوات القدامى والامراء وكانت جميعها مفتوحة لجماهير القراء هذا وان معظم المتعلمين والمثقفين الاتراك لم يألموا هذه المكتبات فحسب بل انهم وهبوا كتبهم المدونة بخطهم الى هذه المكتبات وبذلك تم جمع العديد من الكتب النادرة وقد خصصت ادارة مؤهلة لتمشية اعمال هذه المكتبات وكانت الحكومة تقدم لها الخدمات في شتى المجالات .

ان اهمية المكتبة المعروفة بمكتبة الحميدية تتسم بان اوراق معظم كتبها قد نقشت وكتبت بماء الذهب وكانت حواشي تلك الكتب مزينة بالزخارف الذهبية(٦٦) .

واستنادا الى ما اوردناه من هذه الحقائق يستطيع المرء ان يستنتج بسهولة بانه منذ ٩٠٠ سنة كان المسلمون القدامى قد اوجدوا ثورة عظيمة في مجال امتلاك هذه المؤسسات سواء كانت مكتبات عامة او خاصة وذلك في وقت لم تكن الطباعة معروفة آنذاك . ان العالم الحديث لا يملك شيئا جديدا في هذا الحقل باستثناء بعض التقدم الفني الذي جرى خلال ٢٠٠ سنة منصرمة ، ان المسلمين في الواقع كانوا حملة المشاعل في حقل المكتبات .

***

المصادر

(١) المشكاة (كتاب العلم) .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر
(٤) نيكلسون .
(٥) نفس المصدر .
(٦) نفس المصدر .
(٧) الفهرست لابن النديم .
(٨) نفس المصدر ـ فيليب حتي ـ تاريخ العرب ص ١٦٦ .
(٩) مقالات الشبلي المجلد ٦ ص ٤ـ٧ عزام كاره ـ الهند ١٩٥١ .
(١٠) نفس المصدر .
(١١) نفس المصدر .
(١٢) مقالات الشبلي المجلد ٦ عزام كاره ـ الهند ١٩٥١ .
(١٣) ماني ـ خلال حكم شاهبور بن اردشير فان ماني هذا قد ادعى النبوة وكان له اتباع كثيرون ولكنه قتل من قبل احد ملوك الفرس .
(١٤) عبدالله بن المقفع الذي ترجم كليلة ودمنة وخداي نامة وعين نامة ... الخ ، جبرائيل الذي ترجم العديد من من الكتب في الطب ، البطريق وهو مسيحي ترجم العديد من الكتب ، مقالات شبلي المجلد ٦ ص ١٠ .
(١٥) نفس المصدر ـ هزار داستان ، الف ليلة ... الخ قد ترجمت الى العربية ـ الفهرست لابن النديم ص ٣٠٤ .
(١٦) مكتبات العالم الاسلامي القديم ـ عبدوس صبح قاسم ـ جورنال اوف بشوار بوتيفرستي (باكستان) كانون الثاني ١٩٥٨ ـ
Journal of Peshawar University (Pakistan) January 1958
(١٧) فيليب حتي ـ تاريخ العرب ص ٣٠٩ .
(١٨) تاريخ المكتبات ـ الفريد هسل ترجمه ديوبين بيس ص ٣٠ .
(١٩) فهرست ابن النديم ص ١٢٤٥ .
(٢٠) مكتبات المسلمين في العصر الوسيط تاليف جي.دبليو ثومسون ص ٣٥٠ـ٥١ (نيويورك) .
(٢١) فيليب حتي تاريخ العرب ص ٣١٢ ـ ١٣ .
(٢٢) سيد امير علي ـ تاريخ الساراسانس ص ٢٧٩ .
(٢٣) تاريخ مكتبات المسلمين في العصر الوسيط تاليف ثومسون ص ٣٥٠ ـ ٥١ (نيويورك) .
(٢٤) نفس المصدر .
(٢٥) مقالات الشبلي المجلد ٦ ص ١٥٧ ـ ٨ .
(٢٦) نفس المصدر المجلد ٦ ص ١٨٥ عزام كاره ـ الهند .
(٢٧) ابن النديم ـ الفهرست .
(٢٨) المكتبات في العالم الاسلامي ا.س. قاسمي ـ صحيفة جامعة بشوارة ، الباكستان .

(٢٩) مقالات الشبلي ص ١٦١ المجلد ٦ .

(٣٠) سيد امير علي ـ روح الاسلام ص ٢٧٣ ـ تاريخ الساراسانس المجلد ٦ ص ٤٦٩ .

(٣١) مقالات الشبلي المجلد ٦ ص ١٦٠ ـ ١٦٢ .

(٣٢) ٨٠٠ ـ ١٣٥٠م ـ جامعة كولورادو ١٩٦٤ ص ٦٧ ـ ٧٠

(٣٣) المكتبات في العالم الاسلامي القديم ا.س. قاسم ، صحيفة جامعة بشواره .

(٣٤) مقالات الشبلي المجلد ٦ ص ١٦٧ .

(٣٥) نفس المصدر .

(٣٦) نفس المصدر ص ٦٧ ـ ٨ .

(٣٧) المكتبات في العالم الاسلامي ا . س . قاسمي .

(٣٨) نفس المصدر .

(٣٩) نفس المصدر .

(٤٠) نفس المصدر ـ ابن النديم ـ الفهرست .

(٤١) شمس الحق ـ ص ١١٦ .

(٤٢) المكتبات في العصر الوسيط تاليف جي . دبليو . اف ثومسونس ـ الفصل ١٢ .

(٤٣) مقالات الشبلي المجلد ٦ .

(٤٤) نفس المصدر .

(٤٥) مسلم كرتي ـ محمد عبدالقادر ، نشر كلكتا ـ الهند ١٩٣١ .

(٤٦) فيليب حتي ـ تاريخ العرب ص ٥٣٠ .

(٤٧) اس . ام . امام الدين ـ المكتبات العربية في اسبانية ـ كراچي ١٩٦١ .

(٤٨) مقالات الشبلي ـ المجلد ٦ سيد امير علي ـ تاريخ الساراسانس ص ٥١٤ .

(٤٩) نفس المصدر .

(٥٠) محمد عبدالقادر . مسلم كرتي الجزء الثاني ص ١٢٥ ـ دوزي ـ روح الاسلام ص ٤٥٤ .

(٥١) مسلم كرتي الجزء الثاني ص ١٢٩ ـ ٣٠ .

(٥٢) نفس المصدر .

(٥٣) تاريخ المكتبات العربية في اسبانيا ص ٢٢٣ ـ ٤ .

(٥٤) مسلم كرتي المجلد الثاني ص ٧ ـ اسبانيا الاسلامية ـ دوزي ص ٦١٠ .

(٥٥) تاريخ المكتبات العربية في اسبانيا .

(٥٦) تذكرة الشيخ ابو علي بن سينا ـ ابن خلكان .

(٥٧) مقالات الشبلي المجلد ٦ ص ١٦٠ ـ اى جى . براون . ـ التاريخ الادبي الفارسي المجلد (١) ص ٣٧٤ ـ ٧٥ .

(٥٨) المكتبات في العصر الوسيط .جى. دبليو . اف ثومسون الفصل ١٢ ص ٣٥٣ .

(٥٩) نفس المصدر .

(٦٠) مقالات الشبلي المجلد ٦ ص ١٦٢ .

(٦١) نفس المصدر .

(٦٢) نفس المصدر ص ١٦٤ ـ الفهرست ص ٤١ .

(٦٣) مقالات الشبلي المجلد ٦ ص ١٦٥ ـ الفهرست ص ٢٤١

(٦٤) سيد امير علي ـ روح الاسلام ص ٣٨١ .

(٦٥) سفرنامه ـ الشبلي ـ لاهور ، باكستان ١٩٦١ .

(٦٦) نفس المصدر .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى